مقدمة

كرة القدم هي الرياضة الشعبية الأولى في معظم دول العالم، وتتجاوز اللعبة المثيرة حدود المنافسات الرياضية التقليدية إلى آفاق سياسية واقتصادية واجتماعية رحيبة. ألم تنشب حرب عسكرية شاملة بين دولتي «السلفادور» و«هندوراس» عقب مباراة كرة قدم بين البلدين، تتويجًا لخلافات تاريخية شاملة بينهما؟. ألا يفرض بارونات المخدرات في كولومبيا سلطتهم غير المحدودة على عناصر اللعبة كافة، ويصل الأمر إلى اغتيال أحد اللاعبين لأنه يخطئ ويسجِّل هدفًا في مرماه؟. هل تغيب أصابع المافيا عن نتائج المباريات ومسار المراهنات في دول ذات شأن في ساحة الكرة؟. ألا تمثل كرة القدم نشاطًا اقتصاديًّا ضخمًا تُستثمر فيه المليارات كل عام، ولا يخلو هذا النشاط من فساد يمتد من قاع المنظومة إلى قمتها؟. وأخيرًا، هل يشك أحد المتابعين أن الاتحاد الدولي لكرة القدم أكثر هيبة ونفوذًا وسيطرة صارمة على أعضائه من الأمم المتحدة؛ فلا تستطيع الدول المنتمية إلى الاتحاد أن تتمرد عليه وترفض قراراته؛ فعندئذ يطولها التجميد ويحل البوار على ملاعبها وأنديتها؟.

عند النظر إلى الواقع المصري، يمكن القول إن «الأهلي» و«الزمالك» هما الحزبان الأكثر شعبية والأقوى نفوذًا والأعمق أثرًا في الحياة الاجتماعية اليومية، فلكل منهما ملايين من الأنصار والمؤيدين.

من الأسئلة الشائعة المألوفة عند المقابلة الأولى بين شخصين يتعارفان للمرة الأولى: «أنت أهلاوي أم زملكاوي؟»، وليس مطروحًا أن يكون السؤال عن التوجه السياسي أو الانتماء الحزبي، ويبرهن السؤال عن انحياز أغلبية ساحقة من مشجعي كرة القدم إلى أحد الناديين الكبيرين، مع استثناءات نادرة قوامها أقلية ضئيلة تنخرط في تشجيع الأندية الأخرى.

ليس منطقيًّا أن يستهين قطاع من المثقفين والسياسيين بكرة القدم وتجلياتها وتداعياتها؛ فهي ليست لهوًا ونشاطًا ثانويًّا جديرًا باللامبالاة، ولا يمكن القول إن الانشغال بها ينهض دليلاً على الخفة والسطحيَّة ومحدوديَّة الوعي. التعالي الذي يتم الإعلان عنه، موروث سلبي ميكانيكي عن مراحل سابقة، كان يُنظر فيها إلى كرة القدم كمفردة لا يليق وجودها إلا في قواميس وحيوات الأطفال والمراهقين والشباب الطائشين وحدهم، وربما يكون الشاعر والكاتب المسرحي الإنجليزي الكبير ت.س.اليوت هو الأفضل في الرد على هؤلاء المتعالين المتعجرفين الذين يصفهم بالغباء، لأن الكرة عنده لا تقل أهميتها عن القصة والرواية.

النص الروائي والقصصي الجيد الجاد، لا ينصرف عن الاهتمام بمعطيات الحياة اليومية التي تشكل نسيج مادته، ولابد- لتمام الصدق- أن يعكس مفرداتها و إيقاعاتها المختلفة. المبدع جزء أصيل من خريطة الواقع الذي يُعْلِي من شأن كرة القدم، ويؤكد هذا الواقع أن أقلية ضئيلة من المصريين هي التي لا تهتم بالكرة، ولا تتابع أخبارها ومسابقاتها المحلية والعالمية ونتائج مبارياتها وانتقالات نجومها بين الأندية المتنافسة على الساحة المحلية، أو للاحتراف في فرق عربية وأوروبية.

في فصول دراستنا هذه، نتوقف أمام الموقع الذي تحتله كرة القدم في الإبداع الروائي والقصصي لأحد عشر كاتبًا مصريًّا: توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، إحسان عبدالقدوس، عبدالرحمن الشرقاوي، فتحي غانم، يوسف الشاروني، أبو المعاطي أبو النجا، بهاء طاهر، صنع الله إبراهيم، إيهاب قاسم، أحمد الصاوي.

ينتمي الكتاب موضوع الدراسة إلى أجيال متباينة، ومدارس فنية مختلفة، ورؤى سياسية وأيديولوجية متعارضة. الفارق في العمر بين توفيق الحكيم، الفصل الأول، وأحمد الصاوي، الفصل الأخير، يزيد على ثلاثة أرباع قرن، ولاشك أن طبيعة البناء الفني وآلية تقديم الشخصية والسمات اللُّغوية، تختلف إلى حد التناقض الجذري، ولا متسع بطبيعة الحال للحديث عن تجانس أو تقارب فكري. لا ينفي هذا كله وقوف الجميع تحت مظلة الانتماء الإنساني من ناحية والانشغال بالهمِّ المصري وتجلياته المختلفة من ناحية أخرى.

في هذا الإطار، تمثل كرة القدم عنصرًا لا يغيب من منظور يعانق الآفاق السياسية

والاقتصادية والاجتماعية، فهي مفردة تظهر في إبداع الفرقاء، وتكشف عن اختلافهم الملموس في المعالجة، تبعًا لهوياتهم الجيلية والفنية والفكرية.

يختلف الوعي بعالم كرة القدم وخصائصه من كاتب إلى آخر، وهو ما ينعكس على التناول إيجابًا وسلبًا. صنع الله إبراهيم لا يبدو على دراية بمصطلحات الكرة وقوانينها، دليل غياب المتابعة والاهتمام، لكنه يترجم حقيقة وجودها المؤثر داخل السجون المصرية كما هو الحال خارجها، وبهاء طاهر يماثل بطله الراوي في الجهل الشامل بالكرة، لكنه يرصد دور الرياضة الشعبية واسعة الانتشار كأداة فعالة للتنفيس ذي المنحى العدواني العنيف عن الفراغ وهيمنة الشعور بالخواء، والأمر نفسه نجده بأشكال متنوعة عند توفيق الحكيم وعبدالرحمن الشرقاوي وفتحي غانم وإيهاب قاسم، الذين يتفاعلون مع الموقع الذي تحتله كرة القدم في الحياة المصرية بما يتوافق ورؤاهم السياسية والفكرية، أما نجيب محفوظ فينفرد برؤيته الشاملة التي تجمع بين تجربته الذاتية وموقفه الموضوعي، وعبر ذلك التداخل يكشف عن تطور الموقع الذي تحتله كرة القدم عبر عقود متتالية في القرن العشرين.

أبو المعاطي أبو النجا وأحمد الصاوي هما الأكثر أهمية في تاريخ الرواية المصرية، من حيث الدور الذي تلعبه كرة القدم في البناء الفني والرؤية الفكرية والسياسية لروايتي «ضد مجهول» و«إصابة ملاعب». إذا كان أبو المعاطي يرصد بدايات ثورة يوليو 1952 ويشير إلى مسارها المتوقع من خلال المباراة المأسوية التي تشكل العنصر الأساس في بناء روايته، فإن أحمد الصاوي هو صاحب الشهادة الأهم والأنضج والأعمق عن الموقع الذي تحتله الكرة في الحياة المعاصرة، محليًّا وعالميًّا، حيث الانتشار غير المسبوق وطغيان قيم العولمة والتداخل الدال بين الرياضة والسياسة والاقتصاد.

❐❐❐

يذهب الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر إلى أن «كل شيء في مباراة كرة القدم يصبح معقدًا بحضور الفريق الخصم». المباراة إذن هي إعادة إنتاج لفعل الوجود، والفريق المنافس هو «الآخر»، ولذلك فإن كرة القدم عنده هي «مجاز الحياة».

الحديث يطول عن الفلسفة التي يمكن استنباطها من الكرة، ذلك أن اللعبة الشعبية «نَصٌّ»

إبداعيٌّ له خصوصيته وتفرده، وهي بديل للحرب التقليدية على نحو ما. إنها حرب بلا دماء، وصراع تبرهن نتائجه على أن أحدًا لا يفوز بلا هزيمة، كما أن الضعيف المهزوم لن يعدم فرصة لتحقيق النصر في مراحل تالية.

يتفاعل الأدب الروائي والقصصي مع كرة القدم فيزداد الوعي بالحياة المصرية، ولا يزعم الباحث أن الدراسة التي يقدم لها تحيط بكل الأعمال التي تتضمن إشارات جوهرية مؤثرة عن كرة القدم في الأدب المصري، فمثل هذه الإحاطة تتطلب جهدًا يفوق الطاقة الفردية المحدودة، لكن النماذج التي يتعرض لها قد تكون دالة في الكشف عن أهمية الكرة في الحياة والأدب معًا، وما تتضمنه من شهادة سياسية واجتماعية شاملة، جديرة بالتأمل والاهتمام.

مصطفى بيومي

القاهرة

2016 - 10 - 7

obeikandl.com